العولمة وإشكالية الصراع الفكري في العالم الإسلامي

د. البشير قلاتي

جامعة الأمير عبد القادر- قسنطينة -

يظهر اليوم مصطلح العولمة ملء السمع والبصر،ولاشك أنه يثير فينا،كمسلمين، هواجس وتوجّسات مختلفة...،خاصة مع ظهور طروحات "نهاية التاريخ" عند (فوكوياما) وفكرة "صراع الحضارات" (عند هندنقتن) ،وهي استراتيجية تُبرز الولايات المتّحدة الأمريكية – بعد سقوط المعسكر الشيوعي- كعملاق منتشي بقوته يبحث له عن متحدي، تؤيده في ذلك نظرية (التحدي) في بناء الحضارة واستمرارها عند المؤرخ البريطاني الكبير (آرنولد آتوينبي)....

ولا أدلّ على ذلك من هذا الحجم الكبير من الندوات والدراسات التي تناولت الموضوع،والذي يُعد بالمئات، تؤكد معظمها على مسألة تهديد العولمة للهويات الوطنية لشعوب العالم الثالث،و على سبيل المثال لا الحصر: ندوة العولمة والهوية(الرباط، ماي 1997)،ندوة العرب والعولمة (مركز دراسات الوحدة العربية،ديسمبر 1997)،العولمة والحفاظ على الهويات(باريس،يناير 1998)،العولمة وقضايا الهوية الثقافية(القاهرة،أفريل1998)، الفرونكفونية والعولمة،بيروت،أفريل 1998) ....ولا نقول أن مراكز الدراسات في الغرب لا تهتم بالموضوع ،لكن الملاحظ أن الغرب

ينشغل بهذه العولمة باعتباره الفاعل فيها الموجه لآلياتها ،أما نحن فننشغل بها من مقام المفعول به ؛لأننا لا نتحكم بتوجيهها [1]، ....

لا نجد مفهوما واحدا للعولمة لدى المهتمين من المفكرين؛لأن آثارها ما زالت تتداعى ، فكلٌ ينظر إليها حسب ما يغلب من تخصصه العلمي...لكن ذلك لا ينفي الاتفاق على مظهرها الأهم كهيمنة ثقافية وتحكّم اقتصادي (تتبيع) ،ولذا نجد من يعتبرها كصادق جلال العظم: "حقبة التحوّل الرأسمالي العميق للانسانية جمعاء في ظل هيمنة دول المركز وبقيادتها وتحت سيادة نظام عالمي للتبادل غير المتكافيء" ،أوأنها "ليست مجرد آلية من آليات التطور الرأسمالي، بل هي بالدرجة الأولى إيديولوجيا تعكس إرادة الهيمنة على العالم"كما يقول المفكر المغربي (محمد عابد الجابري)[2]،فالعولمة نتاج تطور النظام الرأسمالي العالمي الذي تقوده الولايات المتحدة الأمريكية كما يقول الخبير الاقتصادي (إسماعيل صبري عبد الله) زاد من تسريعها،كهيمنة ثقافية، ثورة الاتصالات الكبرى مع اكتشافات التكنولوجيا الرقمية عالية الكفاءة والوسائط المتعددة،وما تحمله ثورة المعلومات من قيم ثقافية غربية تصنع ثقافة استهلاك شبقي بما يتجاوب مع متطلبات السوق الرأسمالي العالمي،وهذا بإعادة صياغة المجتمعات على نمط الحياة الغربية حتى أضحى الإعلان والإشهار الوسيط الفعلي بين الثقافة والاقتصاد...

وربما نميل إلى التفريق بين **العالمية** كإفراز طبيعي لمرحلة تاريخية تمر بها الحضارة الغربية جرّاء تقدّم صناعي وإعلامي غير

مسبوق،ولها نتائج إيجابية كبرى على الإنسانية،وبين **العولمة** بما تحمله اللفظة ذاتها من معنى القسر والإكراه والحمل على الإتباع....وهي إيديولوجيا الحضارة الغالبة،أي هيمنة ثقافة وحيد القرن...وهو الأمر المرفوض؛ لما يحمله من تهديد لقيمنا وثقافتنا.وهذا ما يجعلنا نعيش مشكلة إنفصامية في شعورنا ؛إذ في الوقت الذي نشعر فيه بالسعادة والمتعة بما تقدمه لنا المدنية الغربية من وسائل الراحة والرفاهية، ترتعد فرائصنا حين تتبدى في حياتنا اليوم مظاهر مستحدثة من العادات والأفكار والقيم المنافية لشخصيتنا الثقافية تهدد هويتنا.[3]

ومن خلال فكر استشرافي مبكر يلاحظ المفكر الجزائري المسلم (مالك بن نبي)أن العالم في طريقه الى التوحّد بفعل التغيرات السياسية والتطور الصناعي الذي يعرفه،وأن القيادة ستتسلمها الولايات المتحدة الأمريكية ،يقول في مذكراته ،في القسم الأول منها (الطفل) :" أما أمريكا فقد كانت قطب العصر في السياسة والعادات..وأصبح الدولار متداولا وأنزلت (وول ستريت) منطقة (سيتي) عن عرشها،فالعالم أخذ (يتأمرك) خصوصا في الأفلام السينمائية ،متّخذا ذلك التحول الذي أوحى إلى (بول فاليري) قولته الشهيرة"أوروبا تطمح لأن تدار بلجنة أمريكية"[4].

وكانت كل الأوضاع الاقتصادية التي خلفها القرن التاسع عشر قد خلعت على العالم صفة الوَحدة الأرضية،من خلال المنظّمات العالمية، كمحكمة العدل الدولية،القانون الدولي،القانون البحري،الاتحادات النقابية العالمية،اتحاد البريد العالمي وإنشاء

عصبة الأمم...كل ذلك حتّم وضع المشكلات الإنسانية في مستوى وَحدة التاريخ من خلال الظروف الصناعية والنفسية التي بلغها العالم الذي ألغى فيه العامل الصناعي بُعد المكان وأفنى فيه المسافات ورغم أن المسافات الجغرافية قد ألغيت ،فإن المسافات الاجتماعية ازدادت اتساعا...فشتّان شتّان بين مفتت الذرة في أمريكا وجائع في إفريقيا لا يجد كسرة خبز يابس يفتتها[5]...

-حقيقة العولمة:

العولمة في مفهومها العام :إيديولوجيا هيمنة ثقافة الغرب والتي تقوم على مركزية الغربي ،يمكن فهمها من خلال النظر إليها من زاويتين: زاوية ثقافة الاستعمار و زاوية الصراع الفكري.

- العولمة وثقافة الاستعمار: إذا كان القائد الألماني (كلوزفتز clausevitz) (1785 /1831) يعرّف الحرب بأنها : "استمرار للسياسة بوسائل أخرى"، فأتصوّر أن العولمة – بما تحمله من هيمنة وقسر- هي استمرار للاستعمار بوسائل أخرى أيضا...؛ إذ هي شكل متطوّر من الحركة الاستعمارية التي كانت بدورها استمرارا للحروب الصليبيّة ،هذه الحركة التي تبنّت إيديولوجيا التفوّق العنصري للاستيلاء على مقدرات الشعوب الأخرى بالعنف والقهر...واليوم تقوم هذه العولمة على صهر الثقافات في قوالب الفكر الغربي بهدف تحقيق الهيمنة الحضارية الشاملة وهذا ما نبّه اليه البروفيسور (ادوارد سعيد) حيث يشير الى بنائية التصور الغربي للشرق على نفي واثبات ،فهو ينفي عنه ما يثبته لنفسه ويثبت له ما ينفيه عن نفسه من منطلقات الاستعلاء العنصريّ[6] ،وأمريكا نفسها قامت على إبادة السكّان

الأصليين وتدمير الحضارات القائمة(حضارة الإزتك و المايا)،بل وعلى اختطاف الأفارقة من سواحل بلادهم وبيعهم كالبهائم لخدمة الرجل الأبيض وبناء حضارته...و ذلك يرجع إلى أصول الثقافة الغربية المادية والتي يُلاحظ فيها نوعين من الانفصام:

-انفصام بين العلم والضمير الذي جسّدته سرعة في النمو العلمي والصناعي من جهة وسرعة في التوسع الاستعماري من جهة أخرى ،وهو ناتج عن استغراق كلي في حمأة المادية؛ فكل شيء يقاس بالكم،وكل شيء نسبي حتى القيم الأخلاقية ،مما أدى إلى موت الفضيلة وخراب الروح،وتمّ الفصل بين السياسة والأخلاق،"إذ أن الغاية تبرر الوسيلة " كما يقول (ماكيافيللي)، وحتى التجارة أضحت عند هم السرقة الحلال!!.-كما يقول مالك بن نبي -، فلا غرو أن السياسة الغربية توجهها المصالح المادية والإستراتيجية وتحكمها فلسفتها البراغماتية، ولا علاقة لها بالأخلاق.

- انفصام بين عقلية الداخل وعقلية الخارج؛بحيث أضحى الأوروبي يفكر بمنطق الإنسانية داخل إطار مجتمعه ويفكر بمنطق الاستعمار خارجه،فلا يرى في الإنسانية الا سلّما الى مجده...

نعم،لابد من الاعتراف بالايجابيات الكثيرة التي يتميز بها الغربي ؛لكنها إيجابيات أنانية لااشعاع فيها فهو لا يحمل فضائله خارج عالمه هو ،فلا يظهر كإنسان بل كمستعمر[7]،ولاأدل على ذلك من نغمة حقوق الإنسان التي يستخدمها حسب الحاجة و الطلب ..فبينما نجده يتباكى عليها في نيجيريا وأندونيسيا ،لا نحس منه اكتراثا لانتهاكاتها في الشيشان وفلسطين والعراق وغيرها...

-العولمة وآليات الصراع الفكري:

ترتبط العولمة بما هي هيمنة ثقافية بآليات الصراع الفكري؛أي نقل المعركة إلى ساحة الأفكار،في محاولة لتصفية أفكار الجمهور من كل ما يعتبره الاستعمار الجديد أفكارا مخربة تهدد مصالحه لحضارية وهيمنته الثقافية..فبعد أن أدركت "قرون الاستشعار" لمراصده العلمية (كمدرسة العلوم الاستعمارية بباريس) الأهمية الاجتماعية للأفكار،وأن صرعها في ساحة المعركة أكبر تأثيرا وأعمق أثرا من هزيمة الجيوش ...عمد الاستعمار إلى تجنيد مراكزه المختصة لتوجيهنا الفكري ، بل وعمل على وضع نظام دقيق للإفساد،محاولا امتصاص قوى الشعب الواعية حتى لا تتعلق بفكرة ناهضة مجرّدة لتعبئتها لحساب فكرة متجسّدة؛حتى يسهل التحكّم بها وتوجيهها بالاغراء أو التشويه أو بالقوة إن اقتضى الأمر...[8]

تعمد مراصد الصراع الفكري إلى ترصّد كل حركية للأفكار مسلّطة الضوء على تلك التي تحسّ منها (بما يملكه من قرون الاستشعار دقيقة) الخطر على مصالحها في الهيمنة ،مدركة أهمية الأفكار في التوجيه الاجتماعي ؛ولذا نراها تهتمّ بأفكارنا أكثر من اهتمامها ببترولنا..،وهي تستغل في ذلك أمران:

- جهلنا –عموما- بالقيمة الاجتماعية للأفكار
- ثغراتنا النفس اجتماعية .

و من السذاجة بمكان أن نظن أن مراصد الاستعمار تجهل فينا هذه الثغرات التي قعدت بنا عن الحركة الفاعلة في التاريخ

وجمدتنا بفعل جاذبية الأرض ، ومن البلاهة أن نظن أن الاستعمار يعلم ذلك فينا ثم لا يعمل على استغلاله و استثماره كأحسن ما يكون الاستثمار...

لذلك يحرص الاستعمار على استخدام الفكرة المجسّدة في مستوى الطبقة المثقفة عندنا ، فيقدم لها شعارات سياسية تسدّ منافذ إدراكها إزاء الفكرة المجرّدة،وفي هذا الإطار يفضّل استخدام لغة الدّين ؛لأنها تسدّ بإحكام منافذ الوعي عندنا ،كما يعمد أحيانا إلى استخدام سلاح المال ليشكل له صداقات تساعده على توجيه هجمات محكمة في الوقت المناسب...[9]

وتقوم إستراتيجية الصراع الفكري على تحقيق أمرين أساسيين:

1)-القضاء على الأفكار(الحية) أو توجيهها.

2)-الحيلولةَ بينها وبين أن تتجمّع تحت راية أكثر فعالية.

ويعتمد -لتحقيق ذلك -على أسلوب بارع يتّسم بالغموض والفاعلية.

فيعمل على أن يحول بين الفكر والعمل ،حتى يبقى الأول مشلولا والثاني أعمى،وخاصة في مجال السياسة ليتحول الفكر إلى هذر(فاقد للفاعلية) وتتحول السياسة الى بوليتيكا(مجموع الديماغوجية والشعارات الطنّانة) ...كما يعمد إلى استغلال خاصية الانفعال و الشيئية عندنا بالتلويح بفكرة استفزازية؛ فيثير حولها اللغط عبر أجهزته الدعائيّة، ليثير غضب الجمهور إزاء عدٍو ما،

فتُستنفر الطاقات،وتُوجّه ضد هذا العدو، وكلّما ازداد التلويح ازداد الغضب ،فيضعف التركيز وتتشتت الطاقات في معارك وهمية...تماما مثل ما يحدث في لعبة صراع الثيران الاسبانية ؛ حيث يلوّح اللاّعب بقطعة القماش الأحمر أمام الثور الهائج ، فيزداد هياجه وتزداد حدة هجومه على قطعة المنديل الاحمر غافلا عن محرّك اللعبة الحقيقي...حتى تنهار قواه فيسقط صريعا بفعل الضربات التي يوجهها إليه اللاعب في الوقت المناسب...وبذلك يكون الاستعمار بطل الصراع الثّوري (من الثّور) في المجال السياسي....

أما نحن فننشغل بالسياسة العاطفية التي لا تجد مبرراتها في كسبها بل في هزائمها؛ إذ كلّما تقطّعت أنفاس الثور وخيبته في إصابة الهدف، ازداد هجوما (على المنديل الأحمر طبعا)..!![10]

ونتيجة لاطلاعه التام على الخريطة النفسية للعالم الاسلامي وميله للسهوله واعتماده للحلول السهلة،فان مراكز الصراع الفكري تستثمر معطيات علم النفس الشرطي(REFLEXOLOGIE) لتوجيه الأفكار و المواقف.لتحصيل استجابة المسلم الشرطية بدافع من غريزة الدفاع عن النفس[11]،كنتيجة لرد الفعل تجاه الهجوم الاستعماري...زادته المخابر المختصّة حدّة كي ترفع من طاقات الدفاع عن النفس فوق المستوى المطلوب بما يمكن أن نسميه **تداعيات الانفعال**..وهو ما جعل المسلم يعيش على هامش المجتمع العالمي المعاصر كمنبوذ للقرن،من حيث وضعه إزاء عالم يتّهمُه أو يُتّهم منه،وهي وضعية سلبية تُلقي ثقلا على مصيره،في الوقت الذي يتقرر فيه مصير العالم بإجماع الإنسانية.

وهكذا تعمد مراصد الصراع الفكري على عزلنا عن عالم نتّهمه أو يتّهمنا ،و لا يفتأ يملأ أبصارنا بأشباح يزيد تأثيرها في توتُرنا فوق درجة مجرّد الدفاع عن النفس ،بينما يزيد المنديل الأحمر من فزعنا من الأشباح ! ...وكثيرة هي المناديل الحمراء التي يجتهد المسلمون، وحتى خاصّتهم المثقفة ،في نطحها،ليس آخرها قضية (الآيات الشيطانية)،ولا قضية رسوم (البوكيمون)... وأخيرا وليس آخرا قضية الرسومات الكاريكاتورية التي ظهرت في الدانمارك...وعلينا انتظار مناديل أخرى يلوّح بها اللاعب الخفي ،لنستجمع طاقاتنا لنطحها حتى تصرف إمكاناتنا في معارك وهمية نسمع فيها قعقعة السلاح ودوي الحرب ولكننا نتصارع فيها مع أشباح تحركها أياد خفية ماهرة.

وقد نجد من المسلمين الغيورين من يحاول معالجة مسألة العولمة كتحدّ يواجه العالم الإسلامي من زاوية البحث هل هي خير نرجوه أم هي شر نخافه ونحذره ؟...وهو ما تحرص مراكز الصراع لإلهائنا عن حقيقة المشكلة ؛ فيحصل لنا مثل ما حصل لأهل (بيزنطا) حين بدأوا يتجادلون حول جنس الملائكة ،هل هم ذكور أم إناث !...فنتجادل عن جنس العولمة ،وهل هي ذكر أم أنثى..حينئذ سيسارع من يهمّه الأمر إلى كشف عورتها مرة كذكر ومرة كأنثى..ثم نُترك في غيّنا هائمين..وربّما نشأت مدرستان وظهر مذهبان..وتُصرف الطاقات وتُبذل الجهود للبرهنة على صحة هذا المذهب أو ذاك وقد يتطوّر الجدل الى مشاجرة..وقد نجد من يسعى للتحذير أن كل من لا يشارك في الصراع خائن أو مرتد!!...[12]

أما النتيجة العملية لهذا الانقسام فهي إحدى حالتين:

-حالة ترى فيها نوعا من العبادة والخنوع(باعتبارها خيرا عميما).

-حالة فيها الثورة والحقد (باعتبارها شرا مستطيرا).

وكلا الموقفين وإن اختلفا من الناحية الأخلاقية ،فهما يتّفقان من الناحية العمليّة ؛لأنهما تتوافقان مع هدف الاستعمار في صرفنا عن حقيقة المشكلة،.وموقف الانفعال هذا لا يخرج في الحالة الأولى عن اللّهث وراء آخر صيحات التكنولوجيا بسبب عقدة الغرام بالمستحدثات،وهو ما يؤدي إلى تورّم مرضي ،يسميه التكديس[13]،مما يُنتج انحرافات نفسية واجتماعية خطيرة،كما أن الحالة الثانية تؤدي إلى انكفاء نفسي واحتماء تراثي يبرّر العجز و الضعف و الوهن.

-نحو موقف إيجابي من العولمة:

إن الاستعمار وكيده، العولمة وإكراهها،الصراع الفكري وآلياته،العولمة وضغطها...كلّ ذلك إفراز طبيعي لحضارة الغالب على ما يسميه مالك بن نهبي محور القوّة(واشنطن-موسكو)،وهو الساعي دوما وراء ما يحقق مصالحه المنتشي بالكشف العلمي،والتوسّع الصناعي،والنّصر الايديولوجي ،ولا يمكننا أبدا أن نتصوّر العولمة جمعيّة خيرية توزّع الصدقات و المعونات ،بل إن الآخر الذي يقف خلف آلياتها ويوجّه أبعادها لا يراعي إلا مصالحه، فيحرص بذلك أن يفتح لنا أبواب متاجره بدل أن يفتح لنا أبواب

مدارسه، حتى نبقى دوما في موقف الزبون، ....فهل نلومه على ذلك .....!؟.

إن المشكلة أوّلا وأخيرا ليست في هذا الآخر الذي نسمّيه **الإستعمار** بل هي في **النّحن** الذي نسمّيه **القابلية للاستعمار**.فمجموع العقد النفس -اجتماعية،بما تتمظهر به من ذُهان سهولة أو صعوبة والسياسة الأميبية(الأميبا هو وحيد الخلية، من الطفيليات) ، ،والتي أنتجت عندنا ما يسميه (البوليتيكا)[14]التي تحكم مجتمعاتنا،ومظاهر السلبية من تبطّل(بطالة إرادية بسبب الخمول والكسل)، والنزوع العاطفي والميل للخيال (البعد عن الواقع)والذرية في التفكير(تجزيء المشكلات وعدم القدرة على الرؤية الشمولية وإيجاد العلاقات بين القضايا..) كل ذلك أدى إلى (لافاعليتنا) الرهيبة ، والتي جعلت المسلم عاجزا عن استخدام ما لديه من وسائل استخداما مؤثّرا...وهنا مربط الفرس كما يُقال؛إذ أن المشكلة تتعلق أصلا بالإنسان بما يعانيه من عطالة وتبطّل أهّله للتخلّف بجدارة واستحقاق كاملين،كما قال الشيخ محمد الغزالي-رحمه الله-... ليس أسهل من تحميل الآخر مسؤولية ضعفنا وهواننا، أو أن نتذرّع ببعض التّرهات كما يسميها مالك بن نبي ،كالفقر مثلا...وهو من قبيل التدليس للتهرّب من رؤية المشكلة على حقيقتها،فيطرح سؤال: "هل نحن فعلا فقراء..؟"..تشير الدراسات العلميّة أن الأمر لا يتعلّق بقلّة موارد وإمكانات بقدر ما يرجع إلى سوء التدبير أفقد رأس المال لوظيفته الاجتماعية، أي ان المشكلة تتعلّق أصلا بالإنسان الذي أساء استخدام ما لديه من ثروة،مما أهّله ليس للتّخلف فقط بل ولتنميّة

تخلّفه باستمرار العوامل النفس اجتماعيّة للتخلّف فيه...ولعلّ أبرز أسبا بها طغيان الحق على الواجب ،وفي معادلة التنمية تكون النتيجة صفرية اذا تساويا ،كيف ونحن نقدّم الحق دائما على الواجب!؟...لا شك أن ذلك لا يجعلنا متخلفين فقط،بل ويصيبنا بما يمكن أن نسميه **مضاعف تخلّف** ...ولعلّ ما يؤيد ذلك ظاهرة يشير لها مالك بن نبي حيّرت المراقبين وتتمثّل في هبوط مستوى الدخل في بعض البلاد بعد تحررها من الاستعمار بحوالي 16%..! ..ويشير الى أنه من الممكن أن نرجع ذلك جزئيا الى اضطراب المرحلة الانتقالية،لكن السبب الحقيقي انما يكمن في العوامل النفسية الخاصة بذلك الشعب وتلك النزعات المحلية وتأثيرها المعطّل والتي لم تظهر قبلا بسبب قوانين العمل الإجبارية.[15]...هنا تكمن أصل المشكلة.حيث ينبغي الاتجاه الى بناء الإنسان الفعّال ،الذي يتحرك في التاريخ ويُحرّكه،فيتحوّل إلى ذات فاعلة ،يحسب له الآخر حسابه،فلا يجرؤ على أن يقدّم له أوامره على شكل نصائح غير قابلة للمراجعة!!...وهذا لا يتم إلا إذا انصبّ اهتمامنا على إصلاح مناهجنا التربويّة والتعليميّة بالجمع بين الأصالة والمعاصرة،مع إنشاء مجمع لخبراء التربية،علم النفس (بفروعه)وعلم الاجتماع(بفروعه)مع علماء الدين مهمته تحليل الثغرات النفس اجتماعية المسبّبة للعجز و اللا فعالية في الإنسان المسلم ،ورسم الخطط لتخليص ثقافتنا منها.

ودون بناء الانسان الفعّال الذي يقوم بواجبه عن قناعة ذاتية،قبل المطالبة بحقوقه،لن نستطيع المشاركة الايجابية في هذه العولمة التي ستلغي وجودنا من التاريخ...

إن هذه الحضارة التي تقودها اليوم الولايات المتحدة الأمريكية، بما تتمظهر به من عولمة(حمل العالم على التبعية والانقياد) لها أيضا ثغراتها التي تكاد تطيح بها ، والمتمثلة أصلا في غياب أو تغييب البعد الروحي للإنسان، فأضحى فاقدا لغائيّته في الوجود ،ألمّت به الأمراض النفسية والعصبيّة التي أسقطته في تيه العبثية والعدميّة والغثيان،حيث لم يستطع العقل والعلم أن يحقق لروحه إشباعا أو شبه إشباع،وهوما حذّر منهم كثير من مفكريهم ك(اشبينغلر) في كتابه "أفول الغرب"و(آلبرت اشفيتسر) في كتابة فلسفة الحضارة،و(ألكسيس كاريل) في كتابه"الإنسان ذلك المجهول"...

وهنا يكمن الدور المنوط بالمسلم كشاهد على الإنسانية العطشى لهداية الحق قال تعالى:﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرّسول عليكم شهيدا** ﴾ (البقرة/143)،لكن عليه أولا أن يحقّق حضوره بأن يقتنع هو نفسه برسالته،ثم يتمثّلها في سلوكه ؛لأن فاقد الشيء لا يعطيه، فعليه أن يرتفع الى مستوى الحضارة،حتى يقتنع به الآخرون،فيتقبلون ما يعرضه عليهم،وهذا لا يتأتى إلا إذا غيرّ ما بنفسه، أي أن يُصفّي نفسه من القابلية للاستعمار.

و لا يتحقق دور المسلم كشاهد الا بحضوره في عالم الآخرين،فيتعرّف على الآخر بعد أن يكون قد عرف نفسه ورسالته، وذلك بالانفتاح والمشاركة وهي قيم نفتقدها ابتداء من الأسرة التي تغرس في نفس الطفل قيم العزلة؛حيث السلطة الأبوية تزرع تفرقة

بين الذكور والإناث داخل العائلة،مما يؤدي إلى انقسامها إلى جبهتين ،جبهة الأب والذكور من جهة،وجبهة الأم و الإناث من جهة أخرى..زيادة على التربية القهرية التي تزيد في حدة السلبية الاجتماعية واللا فعالية،...وحتى النخبة المثقّفة عندنا لم تعدم هذه الوراثة الاجتماعية...[16]

لا مناص للعالم الإسلامي من الانخراط في العالمية بشرط أن يعمل على تحصين نفسه من جميع الأدواء النفس - اجتماعية التي رسّخت فيه القابلية للاستعمار،فيساهم في مسيرة الإنسانية حاملا قيم الفضيلة والحريّة والسلام وتكريم الإنسان...وجدير بالمسلمين أن يترجموا قيم الإسلام الروحية قيما اجتماعية ليساهموا في اغناء الثقافة الإنسانية، وهذا لا يتأتى إلا إذا تغيّر الإنسان المسلم ذاته،سنّة الله في المجتمع والحضارة،ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً وقاعدة الإصلاح قوله تعالى :{ **إنّ الله لا يُغيّر ما بقومٍ حتّى يُغيّروا ما بأنفسهمْ**}(الرعد/11)

وحتى نكون فعّالين فلا نبقى نبكي على اللبن المسكوب،أو نندب مجدا مضى وانقضى ، علينا العمل على إصلاح مناهجنا التربوية والتعليميّة بهدف بناء الإنسان من مرحلة التعليم الابتدائي، مع تظافر جهود وسائل الإعلام في سبيل ذلك؛اذ أن التعليم –كما يقول الخبير الأمريكي بول كندي-هو مفتاح كل مشروع نهضوي ،وسر تقدم الأمم،..وهو عمل ضخم تقوم به نخبة من الخبراء في العلوم الاجتماعية بعد دراسة كل عقدنا النفسية والاجتماعية.

وفي مجال العمل الاجتماعي يجب تفعيل مؤسسات المجتمع المدني (مع انحسار وظائف الدولة وتكفلها بتوفير الخدمات وهو أمر يفرضه الواقع العالمي،) أي قيام النخبة بتنظيم نفسها في إطار جمعيات ثقافية واجتماعية،وليتحقّق ذلك على النخبة الإسلاميّة أن تتخلّص من عقدة السلطة ،كما يسميها مالك بن نبي ،فتعمل على تربية المجتمع وتخليصه من السلبيات التي سبق ذكرها،بعيدا عن مهاترات السياسة...

وفي سبيل تحقيق التفاعل مع هذه العولمة الجارفة ،على النخب عندنا –ان على مستوى الجامعات ومراكز البحوث أو على مستوى جمعيات العمل العام- أن تفتح لها مواقع على الشبكة العالمية للأنترنت ،كأكبر فرصة لنشر الدعوة الإسلامية توفّرها العولمة، ويُشترط لتفعيلها أن يُخطّط لها بعلمية بإشراف مختصين، وأن تبتعد مادتها عن كل دعاية أو تهريج سياسي أو تعصب مذهبي ،باعتماد العرض البسيط الذي يتلاءم مع الطبيعة الوسطية السّمحة للإسلام...وإلا فإن النتائج التي تترتب عنها ستكون عكسيّة،..وبهذا نكون قد قمنا بجزء من واجبنا تجاه الإنسانيّة.

الهوامش:

---

[1])- زكي الميلاد، المسألة الحضارية،كيف نبني مستقبلنا في عالم متغير؟، ط1، بيروت:م،ث،ع،1999م،ص32

[2])-زكي الميلاد،م،س،،ص32 ،33

[3])- فهمي جدعان،((في البحث عن الممكنات الشاردة))، الكويت ،مجلة العربي،عدد435،فبراير1995م ص35

[4])- مالك بن نبي ،مذكرات شاهد للقرن،القسم الأول الطفل،ط2،الجزائر ،دمشق:دار الفكر 1404ه/1984م،ص ص 40،41.

[5] -مالك بن نبي ،وجهة العالم الاسلامي،ط5،دمشق :دار الفكر،1406ه/1986م، ص 166 ، 167.انظر أيضا: فكرة الافريقيةالآسيوية، ط3،دمشق:دارالفكر،1413ه/1992م ص ص 210 ،211

[6] -محمد محفوظ،الاسلام الغرب وحوار المستقبل،ط1،بيروت:م،ث،ع،1998،ص ص 64 ، 65

[7] -مالك بن نبي ،وجهة العالم الاسلامي،م،س،ص ص 126،127،131 ،،أنظر أيضا: فكرة الافريقية الآسيوية،ص 44.

[8] -وجهة العالم الاسلامي، ص117 ...وتقوم استراتيجية ما يسمى بثقافة الهيمنة كما يعبّر عنها (ارنست رينان) على إنشاء ظروف تذوّب وَحدة الكفاح الفكري في العالم الاسلامي في وحدات كفاح جزئية تتهدّم داخليا،هذه الثقافة التي لاتريد للثقافة الاسلامية في هذه الحرب الخالدة،حسب هذا الغربي المتعصب،إلاموتا تحت وطأة الفقر أو انكماشا في أعماق الصحراء تحت وطأة الرعب..!!.

[9] -مالك بن نبي ،الصراع الفكري في البلاد المستعمرة،د،ط،دمشق:دار الفكر،د،ت،ص ص 15...17 ... ومن ذلك توزيع الجوائز السنية والعطايا السخية في مهرجانات روما وباريز لأعمال أدبية وانتاجات فكرية وفق المعيارغير الموضوعي الذي يخدم أهداف مشروع الهيمنة التغريبي بما يطعن في الصميم ،ثقافة الأمة وأصالتها الفكرية ودينها...والأمثلة معروفة.

[10] -الصراع الفكري في البلاد المستعمرة،ص29 ،30

[11] -نفسه،ص ،ص 66،67

[12]-نفسه،ص62 ،63

[13])-تكديس أشياء الحضارة لا ينتج حضارة لأن الحضارة بناء وهندسة وليست تكديس، ثم ان تكديس أشياء الحضارة الغربية يزيد في عدواه بسبب نوع من الخضوع اللاشعوري بسبب الانبهار النفسي ،والتعويل على بناء حضارة من خلال تكديس منتجاتها وهم؛ اذ هو ممتنع كما وكيفا؛ ممتنع كما لاستحالة شراء كل منتجاتها ،وممتنع كما لأن الحضارة تبيعك أشياءها لا روحها....

[14]) -مصطلح(بوليتيك) ليس ترجمة للسياسة ويستعمل في أدبيات المجتمع الجزائري بمعنى التهريج ،الغوغائية واثارة العواطف، الديماغوجية السياسية وتزييف الحقائق برفع الشعارات الخادعة.

[15] -مالك بن نبي ،فكرة كومنولث إسلامي ،ترجمة الطيب الشريف،ط2،دمشق:دار الفكر،1990م،ص62

[16] -مالك بن نبي ،فكرة الإفريقية الآسيوية،م،س ،ص 256